المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثاني - العدد السادس عشر
تأريخ الإصدار: فبراير 2021 م

المغـرب خلال العصر الحديث والفرص الضائعة لإرساء الحداثة (الدولة السعدية نموذجاً)

Morocco during the modern era and missed opportunities to establish modernity (Saadi state as a model)

د. محمد الغزواني
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي، دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة ابن طفيل القنيطرة، المملكة المغربية

ملخص:
مثل العصر الحديث في أوروبا منعطفا مهما، فبقدرما نقل مجتمعاتها من الفترة الوسيطية إلى الفترة الحديثة، بقدرما ساهم كذلك في بناء ذهنية أوربية متقدمة ومنفتحة، استطاعت أن تطور المجتمع، وتفتح أمامه آفاق واسعة وجديدة اتسمت بالعصرنة والتحديث، فأضحى مفهوم الحداثة يعبر عن كل تجديد مس الفكر والثقافة والنظم من جهة، وتمرد على كل ما هو تقليدي كلاسيكي من جهة أخرى. نتج عن عن هذا التحول التاريخي، الذي بدأت معالمه تظهر بدءا من القرن الخامس عشر بأوروبا، أن تغيرت الأوضاع الإجتماعية التي كانت مبنية على قناعات فكرية وذهنية تمجد كل ما هو محافظ، وترفض كل تجديد قد يطال الفكر والأدب والسياسة والفن والنظم وطرق التفكير، وحتى العقيدة التي أريد لها أن تبقى دائما تحت السلطة الكاثوليكية. ففي الفترة التي كانت تشهد فيها أوروبا كل هذه التحولات، وتتجه نحو بناء الحداثة، شهد المغرب هو الآخر مجموعة من التحولات، التي كان من المفروض أن تقود نحو بناء مجتمع حداثي. صحيح أن التحولات التي عرفتها أوربا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادي، ليست هي نفس تلك التحولات التي عرفها المغرب، لكن من يقف عندها ويمحصها جيدا، يدرك أنها كانت ستشكل قاعدة صلبة، لبناء نموذج حداثي في المغرب، لذلك نسعى من خلال هذه الورقة أن نبرز مجموعة من تلك الفرص التي أتيحت للمغرب خلال العصر الحديث، لكنها فرص لم يتخذ منها منطلقا أساسيا لبناء الحداثة، مركزين في هذه الورقة على العهد السعدي وما احتواه من تلك الفرص، خاصة في عهدي الأميرين عبد الملك والمنصور. فإلى أي حد مثلت تجربة الأميرين فرصة لبناء الحداثة في المغرب السعدي؟

الكلمات المفتاحية: الحداثة، العصر الحديث، الفرص الضائعة، معركة وادي المخازن

المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات
International Journal of Research and Studies Publishing
ISSN: 2709-7064
المجلد الثاني - العدد السادس عشر
تأريخ الإصدار: فبراير 2021 م

Morocco during the modern era and missed opportunities to establish modernity (Saadi state as a model)

Abstract:

The modern era in Europe represented an important turning point. The more it transferred its societies from the medieval period to the modern period, the more it also contributed to building a developed and open-minded European mentality. That mentality was able to develop society and open new modern and modernized horizons for it. Thus, modernity became a concept which reflects any renewal of thought, culture and systems on the one hand, and rebel against all classicism and traditionalism on the other. The result of this historic transformation, which began to appear during the fifteenth century in Europe, was a change in the social conditions that were based on intellectual and mental convictions that glorify everything that is conservative, and reject any renewal of thought, literature, politics, art, systems, ways of thinking, and even the belief that was always intended to remain under Catholic authority. In the period when Europe was witnessing all these transformations, and moving towards building modernity, Morocco also witnessed a set of transformations that were supposed to build a modern society. It is true that the transformations that Europe experienced in the beginning of the fifteenth century AD were not the same as those of Morocco, but whoever examines them well realizes that they would have formed a solid base for building a modernist model in Morocco. For this reason, we seek through this paper to highlight a set of those opportunities that were made available to Morocco during the modern era, but they were not taken as a basic starting point for building modernity. In this paper, we focus on the Saadi era and the opportunities it contained, especially in the two reigns of Prince Abd al-Malik and al-Mansour. So, to what extent did the experience of the two princes represent an opportunity to build modernity in Saadi Morocco.

Keywords: - Modernit, Modern Era, Missed opportunities, Battle of Wadi al-Makhzen

مقدمة:

شكل العصر الحديث فترة تاريخية متميزة، مقارنة بالحقب التاريخية التي سبقته، ولعل أهم ما ميزه هو التطورات المهمة التي حصلت في مختلف صنوف المعرفة، من سياسة وعلم وأدب وإقتصاد وفنون وتقنيات واكتشافات، وغيرها من المجالات الفرعية الأخرى. وانطلاقا من هذه التغيرات والتحولات الإيجابية، أطلق إسم " **العصر الحديث**" على الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين. فالأوصاف التي ميزت الحقبة الحديثة، تنطبق أكثر على الجغرافية الأوربية، ولاسيما جغرافية غرب أوربا-بداية-التي شكلت في اعتقاد كثيرين، مجالا خصبا حصل فيه انتقالا تدريجيا، من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. فبالرغم من الانتقادات التي طالت هذا التقسيم التاريخي، الذي لم يرق لكثير من المدارس التاريخية، وخاصة مدرسة الحوليات، التي اعتبرت أن العصر الحديث في أوربا، ما هو إلا امتداد طبيعي للعصر الوسيط، مبررة ذلك، بأن التحولات التي كانت سببا في عصرنة الحياة بأوربا، لم تطل البنيات الاجتماعية والذهنيات، وغير ذلك من الأمور الأخرى، بل شملت فقط النظم السياسية والعسكرية.

ليس موضوعنا في هذا المقال، إنجاز دراسة مقارنة نبحث فيها لماذا نجحت الحداثة في أوربا، وفشلت في المغرب، فمثل هذه الدراسة عناصرها غير متوفرة، وبالتالي شروط المقارنة تكاد تكون شبه معدومة. فالمتغيرات التي أدخلت أوربا في عصر الحداثة، ليست هي نفس المتغيرات التي حصلت في المغرب، لذلك سنركز على جملة من الأحداث التي تختلف عما حصل في أوربا، لكنها كانت حتما ستقود إلى بناء الحداثة في مغرب الدولة السعدية على عهدي الأميرين عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور. نقر في البداية وقبل الخوض في الموضوع، أن المعطيات التي نسعى إلى تجميعها في هذه الورقة، معروفة للبعض، كما أنها قد لا تكون معروفة للبعض الآخر، فهل توفرت فعلا مقومات التحديث في المغرب خلال عهدي عبد الملك وأحمد المنصور؟ سؤال يبدو فضفاضا للبعض، وقد يثير الاستغراب للبعض الآخر، كما يحق لطرف ثالث أن يتدخل - ويحق له ذلك - ويتساءل منذ اللحظة الأولى، ما الجدوى من هذا السؤال، وما القيمة المضافة التي قد تقدمها الإجابة عنه لطالما لم تتجسد فكرة التحديث على أرض الواقع في المغرب طيلة حكم الأسرة السعدية. فالحاصل والمحصل في تاريخ المغرب خلال العهد السعدي، لن يمنعنا من القفز عن معطيات تاريخية مهمة، حصلت في تاريخ المغرب خلال انطلاق عصر التحديث في أوربا. **لذلك نهدف من خلال هذه الورقة:**

أولا: إعادة قراءة كل ما حصل في تاريخ المغرب خلال عهدي السلطانين عبد الملك (1578- 1576م) وأحمد المنصور(1603-1578م) ، لاستخراج مواقف وأحداث، وحقائق وإنجازات، حصلت خلال فترة حكميهما ، والتي لو كان قد تم استثمارها سلطة ومجتمعا بالشكل المطلوب وأسند لها قدرا من الأهمية، لوضعت - في اعتقادنا- المغرب على سكة الحداثة.

ثانيا: التشجيع على أن يكون عمل المؤرخ والباحث، هو النبش في الذاكرة التاريخية من حين لآخر، لقراءة أحداثها بمنطق آخر وبتفكير مختلف، حتى يتسنى له إعادة بناء حقائق تاريخية جديدة وتركيبها في اتجاهات مختلفة، تساير العصر من جهة،

وتخرج القارئ والباحث والمتتبع للتاريخ من روتينه الذي اعتاد عليه وهو يطالع الأحداث في مستواها الأفقي، الذي لا يتجاوز أحيانا طابع السرد والتمجيد. فكم من إشارات عديدة في تاريخ المغرب، لا زالت حبيسة الرفوف، تنتظر من يزيل عنها غبار الزمن وتتم إعادة قراءتها بعقيدة تاريخية مغايرة وبمنطق تاريخي مختلف. فما الإطار التاريخي العام الذي أنتج العصر الحديث في أوربا؟ . وما الفرص الضائعة لإرساء الحداثة في المغرب على عهد الدولة السعدية؟

المحور الأول: السياق التاريخي العام لإرساء الحداثة في أوربا

يفرض المنهج التاريخي علينا وبقوة، العودة لإبراز السياق التاريخي العام الذي وفر الشروط الموضوعية لانطلاق العصر الحديث في أوربا، إلا أننا لن نفصل في تلك الشروط الموضوعاتية، لكن سنوضح من خلال هذا السياقا التاريخي العام، كيف استفادت أوروبا من تراكم تجاربها التاريخية، ومنجزاتها الحضارية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية، لإحداث تغيير عميق في السلطة والمجتمع وطرق التفكير، بدءا من المحاججة القوية التي حصلت بين الاتجاه الإصلاحي والكنيسة، مرورا بالإصلاح الديني، وانتهاء بمواقف فلاسفة عصر الأنوار. فالأحداث التي عرفتها أوربا مابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين، تختلف شكلا ومضمونا عن تلك التي عرفها المغرب في الفترة التي خصصناها للدراسة، لكن من يقف عليها ويدرسها بعمق، سيسجل تجاهها مجموعة من الإيجابيات التي من الممكن لو تم استثمارها أن تضع المغرب على سكة بناء الحداثة. فالسير نحو الحداثة يقتضي استغلال كل الفرص المتاحة، بما يحقق المنفعة العامة، ويثبت دعائم المجتمع في كل المجالات، ومن خلالها يستطيع هذا المجتمع أو ذاك، أن يفرض إيقاعه السياسي والثقافي والعسكري والإجتماعي على الآخرين.

بدأت أوربا تنعتق من كربات العصر الوسيط وإخفاقاته، وتسير نحو بناء الحداثة منذ بداية القرن الخامس عشر، واستمر هذا البناء حتى القرن الثامن عشر، عندما تحقق الاستقرار السياسي المتفق عليه، عقب نجاح الثورات السياسية والاجتماعية، في كل من إنجلترا وفرنسا على الخصوص. واللافت للانتباه أنه على امتداد هذه الفترة التاريخية، شهدت أوربا مجموعة من التحولات، التي يعود الفضل فيها أولا، إلى الحركة الإنسية التي اهتمت بالإنسان والكون، وأعطت للعقل اهتماما كبيرا في تفسير الظواهر، مبتعدة عن المذهب الكاثوليكي وطرق التفكير الكلاسيكية، التي كانت دائما تسعى إلى إقبار كل ما من شأنه أن يتيح فرصة لاستخدام العقل. لقد " **تميزت الحركة الإنسية في الواقع بتفاؤلية أساسية، فالإنسان مقياس كل شيئ ويوجد في مركز الكون،**

وهو مخلوق مفضل ومدعو إلى تحقيق المشيئة الإلهية بفضل العقل ومساعدة العناية الربانية (...) فالإنسان خير بطبعه، وحر، ومسؤول، فالحرية والسعادة والجمال واحترام الذات، هي القيم الكبرى للأخلاق الفردية التي تصب في الأخلاق الجماعية المؤسسة على التسامح والسلم بين الناس"[1] .

فالصراع الفكري والديني، الذي خاضته الحركة الإنسية مع الكنيسة في محاولة منها تهشيم الخرافات والمعتقدات الدينية التقليدية التي كانت تروجها الكنيسة إضافة إلى الأفكار التي طرحها فلاسفة عصر الأنوار خلال فترة القرن الثامن عشر الميلادي، شكل انعتاقا وتحررا واضحا للمجتمعات الأوربية من قبضة الكنيسة من جهة، كما فتح المجال من جهة أخرى نحو إرساء العصر الحديث في أوربا.

استطاعت الحركة الإنسية بفضل التحولات التي قامت بها داخل المجتمع الأوربي في المجال الفكري والأدبي والعلمي والفني، أن تمهد لانطلاق حركات الإصلاح الديني التي كان لها الفضل في مجابهة الكنيسة الكاثوليكية، وتكسير منطقها الديني المبني على الأسطورة والخرافة التي لم يعد العقل الأوربي يقبل بها، وفي هذا الصدد يدثنا أحد المصلحين الدينيين قائلا : **" سيذهب إلى الجحيم كل من يعتقد بإمكانية الخلاص عن طريق شراء صكوك الغفران (...) ينبغي أن نعلم المسيحيين بأن من يتصدق على الفقراء أو يقرض المحتاجين أفضل ممن يشتري صكوك الغفران"**[2] . وبذلك أضحت **" النهضة وحركات الإصلاح الديني ينبوعا التاريخ الحديث في أوربا، والمصدران المتنافسان للتجديد الفكري والخلقي الذي طرأ على الحياة الحديثة(...) لقد قسمت إيطاليا وألمانيا فيما بينهما تشكيل النفس الحديثة: إيطاليا بالرجوع إلى الأدب والفلسفة والفنون الكلاسيكية، وألمانيا بالرجوع إلى الإيمان والشعائر المسيحية الأولى "**[3].

نستنتج من خلال هذه النافذة المختصرة أن مسألة بناء الحداثة في أوربا، تطلب وباستمرارية متواصلة العمل في ثلاثة اتجاهات منذ الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر وإلى حدود نهاية القرن الثامن عشر. فالإتجاه الأول، استوجب تكريس منطق العقل واستخدامه بشكل إيجابي في تحليل معظم القضايا الإجتماعية والسياسية والدينية والظواهر الكونية، وهذا الإتجاه ساهمت في ترسيخ واقعيته الحركة الإنسية التي يعود لها الفضل في ميلاد فترة حديثة في أوروبا والتي عرفت بعصر النهضة. أما الإتجاه الثاني استثمر فيه المجتمع الأوربي كل ما من شأنه أن يحقق الديمقراطية والعدل والمساواة، وهذا الإتجاه تحققت أهدافه بفضل الثورات السياسيئة والإجتماعية التي بدأت أولا بالثورة الإنجليزية سنة 1689م ثم الثورة الفرنسية سنة 1789م.

1- J.Carpentier et F.Le Brun(sous dir),Histoire de l'europe, éd du Seuil, Paris,1990,pp 217_218.

2 - Martin Luther, Oeuvre,T1 , Labor et Fides, Genéve,1957,pp 106_107.

3- إيرل كينز، المسيحية عبر العصور، ترجمة عاطف سامي، دار نوبار للطباعة، قبرص، 1992، ص، 315.

أما الإتجاه الثالث - حتى لا ننسى - يتمثل في الأخذ بمبدأ " التقنية " الذي كان سببا في انطلاق عصر الآلة أو ما يعرف في تاريخ أوروبا بالثورة الصناعية، وبذلك كان لهذه الثلاثية، " **العقل** " و" **الديمقراطية** " و " **التقنية** " دورا كبيرا في نقل المجتمعات الأوربية من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة.

المحور الثاني

المغرب خلال عهد الدولة السعدية والفرص الضائعة لبناء الحداثة: عهد السلطان عبد الملك

لا يمكن لأي باحث في مجال التاريخ عموما، والمطلع على تاريخ المغرب إبان عهد الدولة السعدية خصوصا، أن ينكر الإهتمام الكبير الذي أولاه الأميرين عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور، لتحديث الحياة العامة في المغرب، ونعتقد أن طموحهما لنظرة التحديث هاته، اكتسبوها من خلال احتكاكهما بأمور السياسة والسلاح والمعارك، بسبب الأزمة السياسية التي حصلت في المغرب بعد وفاة السلطان محمد الشيخ سنة 1557م، والتي كانت سببا في هجرتهما إلى تلمسان، ومنها إلى الجزائر خوفا من أخيهما عبد الله الذي تولى أمر الدولة[1]. فخروجهما من المغرب كان سببا في إذكاء شخصيتهما السياسية والعسكرية، كما أكسبها ذهاء سياسيا وعسكريا كبيرا. فعلى المستوى السياسي كان عبد الملك وأحمد المنصور على اتصال مباشر أحيانا بالإسبان، وأحيانا أخرى بالأتراك[2] . أما على المستوى العسكري فتشير الكثير من المصادر والمراجع التاريخية، أن الأميرين شاركوا في معركة ليبنتي[3]. وبهذا يكون خروجهما من سجلماسة إلى تلمسان ومنها إلى الجزائر عقب وفاة محمد الشيخ، قد جعلهم مدركين للمناخ السياسي والعسكري الذي كان يعيشه المجال المتوسطي ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين. فما هي طبيعة الفرص التحديثية التي كانت من صنع هذين الأميرين والتي فوتها المغرب عن نفسه في صنع الحداثة؟

1- السعديون وتوحيد المغرب والإتجاه نحو الاستقرار السياسي:

يعد الإستقرا السياسي، من أهم الشروط الأساسية والموضوعاتية لبناء أي مشروع حداثي عصري يساهم في القطيعة مع الممارسات والسلوكات وطرق التفكير التقليدية، ويؤسس من جهة أخرى لمرحلة جديدة من شأنها أن تساهم في بناء الحداثة، ونعتقد أن هذا الشرط توفر للمغرب في أكثر من مناسبة تاريخية. وبما أننا نبحث في فرص بناء الحداثة في المغرب خلال عهد الدولة السعدية، التي تزامن تأسيسها مع تثبيت أسس الحداثة في أوربا، والتي ما كانت لتنجح فيه أوروبا لولا توفر عنصر الاستقرار السياسي، الذي أنتجته الثورات السياسية والأجتماعية التي حصلت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

---

[1]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا مابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي،2000،ص167.

[2]- نفسه،ص 171.

[3]- معركة وقعت في 7 أكتوبر 1571م وتعد أهم حدث عسكري عرفه القرن السادس عشر الميلادي، لقد أعلنت هذه الحرب بداية لتراجع القوة العثمانية والتي استطاع المسيحيون من خلالها ن ينهوا الأسطورة القائلة بأن القوة العسكرية العثمانية لا تقهر.

- انظر عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ..... مرجع سبق ذكره، ص 168.

تمكن السعديون من تحقيق الاستقرار السياسي في المغرب من خلال مرحلتين أساسيتين: **المرحلة الأولى،** تمثلت في القضاء على الوطاسيين الذين ناصبوهم العداء، أما **المرحلة الثانية،** فكانت ضد مراكز الاحتلال الأجنبي، والأدهى من ذلك فإن السعديين اتبعوا تكتيكا سياسيا فريدا، فمن جهة هادنوا القوى الخارجية للقضاء على من يعارضونهم في الداخل، ومن جهة أخرى أعلنوا الجهاد على الاحتلال الإيبيري لكسب التأييد الداخلي وسحب البساط من بقايا أتباع الأسرة الوطاسية. وبذلك تحولت الأوضاع في المغرب مع عهد الدولة السعدية، ولا سيما خلال عهدي السلطانين عبد الملك وأخوه أحمد المنصور، تغييرا كبيرا في جميع مناحي الدولة، حيث انتقلت البلاد من حالة الضعف والانقسام وعدم الإستقرار إلى حالة من القوة والوحدة والشموخ. فالسعديون ورثوا بلدا ممزقا مقصوص الأطراف، تقطعت فيه السبل، وانتشر فيه العبث والنهب والخراب، وتوالت عليه الغارات المسيحية حتى بلغت مراكش.

بدأ السعديون استتباب الأمن والإستقرار من البوابة الجنوبية ، فتمكنوا من جعل مراكش عاصمة ملكهم بعدما استولوا عليها سنة 1525 م ومنها انطقوا نحو باقي المناطق المغربية الأخرى [1] ، فتمكنوا من دخول أكادير سنة1541 م بعد طرد البرتغاليين منها، ومنها توجهوا نحو فاس فدخلوها سنة 1549 م وبذلك تم القضاء على الوطاسيين سنة 1554م. لقد مهد الإستقرار السياسي في المغرب على عهد الدولة السعدية إبر از شخصية عبد الملك وأحمد المنصور، ومعهما انطلق فجر الدولة السعدية وانطلقت معه مجموعة من الفرص الثمينة لبناء الحداثة.

2- ثنائية التكوين والتجربة في شخصية عبد الملك:

ازداد عبد الملك سليل الأسرة السعدية سنة 1541، حسب ما أورده ديدرو طوريس، الذي ذكر في معرض حديثه عن محمد الشيخ فقال: " **كان للشريف ولد في سن الثانية عشر سنة اسمه عبد الملك** " [2]. وبالرغم من هذه الإشارة إلا أن الإستوغرافيا التاريخية همشت عبد الملك، وبالمقابل ركزت اهتمامها على شخصية أخيه المنصور. كما أن معظم الكتابات التي تناولت تاريخ الدولة السعدية، لم تشر إلى التكوين الذي تلقاه عبد الملك في صغره، وهذا الشح في المعلومات حول هذا الجانب، يبدو واضحا عند ابن القاضي، الذي لم يتجاوز ستة أسطر وهو يتحدث عن عبد الملك في كتابه " **درة الحجال**"، حيث ذكر نسبه في سطرين، وما تبقى في الأربع الأسطر الأخرى، فأشار فقط إلى أنه أخو أحمد المنصور وأنه توفي مسموما.[3]

---

[1]- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط،2006، ص 51.

[2] - De torres diego,**Relacion origen y succeso de los mercedes garcia** – Arenal. Siglo vienteuno de espana. Ed .S.A
1980, pp242 – 243.

[3]- للمزيد حول هذا الموضوع انظر:
- **ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي**، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الحمدي أبو النو، تونس، المكتبة العتيقة، القاهرة، دار الثرات، الجزء 3، 1971، ص 225.

أصبح الحديث عن شخصية عبد الملك بشكل مباشر وبطريقة مستفيضة، بعدما تمكن الأتراك من اغتيال والده سنة 1557م وعمره لا يتجاوز سبعة عشر سنة، حيث كان نائبا على والده محمد الشيخ بسجلماسة، وهذا يظهر أنه تحمل أعباء السياسة وكل خفاياها في سن مبكرة، وفي منطقة لطالما تميزت بمخاض وتقلبات سياسية واقتصادية كبيرة. فبعدما كانت قلب التجارة الصحراوية،

ومركز الرواج التجاري، وبوابة تجارية مهمة نحو العمق الإفريقي، أضحت تتراجع، وذلك ما استقيناه من حديث ابن أبي محلي، الذي تحدث عنها قائلا: " **كانت جنة الأمصار وصرة المغرب الأقصا (...) ومنها تسافر الأركاب إلى بلاد السودان للتجارة وكذلك للحج** " [4]. فنطقة سجلماسة كانت أواخر القرن السادس عشر قد أصبحت منطقة مضطربة سياسيا، وكانت أنظار كثيرة شاخصة عليها تتحين الفرصة للإستلاء عليها بحكم موقعها الاستراتيجي المتميز. فقبل بسط السيطرة عليها من قبل محمد الشيخ وتعيين ابنه عبد الملك نائبا له عليها، خاض محمد الشيخ حروبا كثيرة ومعارك ضارية لتحقيق تلك الغاية.

يظهر من خلال ما تقدم أن عبد الملك، نشأ في بيئة شديدة الحساسيات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ولربما هذه البيئة بخصوصياتها المتنوعة والمختلفة هاته هي التي ساهمت في سقل موهبته، وزادت من حنكته وتكونه السياسين، كما أكسبته في مقام ثالث تجربة ونظرة ثاقبة في أمور السياسة والحكم. فبعد وفاة والده محمد الشيخ، فر هو وأخيه المنصور إلى الجزائر هروبا من بطش أخيهما الذي استولى على السلطة والحكم، وفي الجزائر احتك عبد الملك وحتى المنصو وإن كان بدرجة أقل بالأتراك، وأصبح عارفا أكثر بمناخ البحر الأبيض المتوسط. فمدينة الجزائر كانت حاضرة وبقوة آنذاك في القرصنة سواء في البحر الأبيض المتوسط أو في المحيط الأطلنتي، فهذه المدينة تطورت ونمت واتسعت على الطريقة الأمريكية على حد تعبير فيرناند بروديل خلال الأيام التي عاش فيها الأميران المغربيان[1].

عاشت مدينة الجزائر طيلة أواخر القرن السادس عشر الميلادي، على وقع أحداث القرصنة التي كان لها قدر من الأهمية في تنشيط كل ما له علاقة بالسياسة والثقافة والإقتصاد، فأضحت مركزا مهما للتلاقح الحاضري، إذ عمت فيها الإتصالات من أجناس وديانات ولغات مختلفة، وفي وسط هذا الجو المتنوع عاش عبد الملك وأخوه فترة زمنية أكسبتهما الشيئ الكثير، كما أنهما كانا موجودان في وسط هذا الفسيفاء الحضاري المختلف والمخالف لبعضه البعض.

عاش عبد الملك وأخوه المنصور مدة زمنية نعتقد أنها ساهمت هي الأخرى في بناء شخصيتهما، بل وأصبحا مطلعان على المناخ المتوسطي بأموره السياسية والإقتصادية، وحتى ملامحه العسكرية.

[4]- ابن أبي محلي أحمد بنعبد الله، تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة، مخطوط، الخزانة الحسنية، رقم 2634.

[1] - F. BERNAND ,la Méditerranée et le monde méditerranée à l'epoque de philippe 2t. armand. Colin paris, 1966, p194.

فهذا المجال البحري كانت تتصارع عليه قوتان كبيرتان آنذاك هما: الأتراك والإسبان وبدرجة أخف الإنجليز. فهذه المعرفة المتوسطية التي كان يعاينها، سيستفيذ منها عبد الملك كثيرا، وعندما سيعود إلى المغرب وتقلد منصب الحكم والسلطة سيجعل من المغرب طرف آخر يسعى إلى انتزاع امتيازات له في هذا المجال المتوسطي، ولعل معركة " **وادي المخازن** " خير دليل على ذلك.

استطاع عبد الملك من خلال تواجده في الجزائر، أن يؤسس لعلاقات وصدقات متوسطية، من خلال مشاركته في أحداث البحر الأبيض المتوسط إلى جانب الأتراك ضد المسيحيين[2]. كما أن مشاركته في معركة " **ليبنتو** " سنة 1571م التي انهزم فيها الأتراك، وأسر فيها من قبل الجيش الاسباني، وكذلك الإنتصارات التي حققها إلى جانب الأتراك على الإسبان، خاصة في" **حلق الوادي**" سنة 1574م جعلت منه شخصية جمعت بين الدهاء السياسي والقدرة على التخطيط العسكري. كما أن هذه المعارك العسكرية التي خاضها مع أكبر القوى العسكرية في العالم آنذاك، والمتمثلة في الدولة الإسبانية المدعومة من العالم المسيحي، جعلته يطلع من خلالها على مظاهر التحديث العسكري الذي بدأ ينمو في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط، وبذلك سيسعى عبد الملك إلى تحديث الجيش المغربي وفق الخصوصية الأوربية كما سنوضح ذلك في المحور اللاحق.

كان لعبد الملك أيضا رغبة شديدة، واهتمام كبير في الإنفتاح على ما كان يجري في الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، ولمعرفة ذلك ومعاينته عن قرب كان حريصا على أن يدرك الذهنية الأوربية وطرق تفكيرها، ولتحقيق هذه الغاية اهتم بقراءة الكتب الأجنبية وواظب على ذلك، فقد أشارت بعض المصادر إلى أنه طلب من أحد التجار في رسالة مؤرخة بتاريخ 3 مايو 1576م أن يرسل له كتابين أو ثلاث عن حياة " **شاركان** " ، بل دفع الأسير " **فراي باوتيستا** " إلى كتابة كتاب عن حياته باللغة الإسب انية [1].

يظهر من خلال ما تقدم أن شخصية عبد الملك ساهمت في تكوينها مجموعة من الأحداث والتقلبات التي عاشها من جهة وعايشها من جهة أخرى، إضافة إلى ذلك أن شخصيته كانت منفتحة على الحضارة الأوربية والعثمانية، فكل هذه الأحداث جعلت منه شخصا مدركا وفي وقت مبكر للذهنية الأوربية، كما ساهم احتكاكه المباشر بأحداث البحر الأبيض المتوسط أن جعل منه شخصا يحمل بوادرنجاح تجربة التحديث في مغرب الدولة السعدية. فإذا كانت شخصيته بنيت وفق التجارب التي عاشها والمجال المتوسطي الذي فهمه واستوعب تحولاته بأبعادها السياسية والإقتصادية والعسكرية، فماهي بوادر التحديث التي أظهر فيها إرادته؟ وما مستقبل تلك البوادر التحديثية ؟.

[2]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا .....، مرجع سبق ذكره، ص 186.
[1]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا .....، مرجع سبق ذكره ،ص 187.

3- المحاولات التحديثية عند عبد الملك:

أبـرزت الكتابـات المغربيـة والأجنبيـة الإتجاهـات التحديثيـة التـي قـام بهـا عبـد الملـك، فقـد قدمتـه هـذه الإستوفرافية في صورة رجل الدولة بأبعاد مختلفة، ذلك ما أورده عبد العزيز الفشتالي حين اعترف أن المغرب قبل وصول عبد الملك إلى الحكم، كان بلدا خارج نطاق القانون،

معبرا عن هذا الوضع بأن المغرب كان ذي " **سيرة مطلقة لم تحفظها القوانين ولا قيدتها ضوابط، بل كانت الأمور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال لما كانت الدولة ساذجة غير مرتاضة للقوانين التي تملك زمامها وتمسك عن الإسترسال عنانها إلى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك المعتصم، فنجح بالدولة إلى السيرة العجمية(...) وحمل الناس عليها حملا عنيفا فشق عليهم ذلك لتنافر الطباع واضطربت الأحوال لتغيير العادة وإيناس الأمور الغير المعتادة** " [2].

نستجلي من خلال" الشاهدة التاريخية " التي أوردها عبد العزيز الفشتالي، الذي عاصر مرحلة مهمة من تاريخ الدولة السعدية ، أن عبد الملك كانت لـه رغبة شديدة في التغيير وفق ما هو سائد في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط، فخططه التحديثية رامت تكسير ما كان مألوفا عند المغاربة من عادات وتقاليد وطبائع، والتي رأى فيها عبد الملك أنها لم تعد تجدي نفعا في وقت أصبح فيه ذاك المألوف متجاوزا في الحضارة الأوربية ، ولم يعد صالحا لمسايرة العصر الجديث الذي تشكلت معالمه الأولى في البحر الأبيض المتوسط منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي.

أراد عبد الملك أن يصبح المغرب على عهد حكم – بل وأراد لذلك أن يستمر- بلدا تحكمه القوانين بدل الأعراف والتقاليد ، وبلدا تحكمه المؤسسات بدل الطبائع القديمة، ومن ثم يرقى إلى مستوى البلدان القائمة على الذهنية الحديثة في كل ما يتصل بأمور السلطة والحكم، بدل أن يستمر في التسيير القائم على العفوية والإرتجالية.

فهم عبد الملك مبكرا، بحكم احتكاكه بالثقافة المتوسطية أثناء تواجده في الجزائر، أن المغرب يجب أن يصبح " **دولة حديثة** " يسود فيها القانون وتصان فيها الحقوق، إلا أنه ربما لم ينجح في ذلك المشروع التحديثي الذي كان يطمح إليه لسببين اثنين : **السبب الأول**، يعود إلى وفاة عبد الملك المبكرة والتي شكلت منعطفا جديدا في مشروعه التحديثي، الذي سرعان ما أقبر مباشرة بعد وفاته، **والسبب الثاني**، يرجع إلى أن الذهنية لمغرب تلك الفترة سلطة ومجتمعا، لم تكن مؤهلة للإنخراط في مثل هذه المشاريع التحديثية، كما أنهما لم يستوعبا تطلعت عبد الملك التحديثية وأن المرحلة تقتضي الإنخراط في مرحلة التحديث، إضافة إلى أن **الذهنية المغربية** كانت رهينة الفترة الوسيطية. فالمشروع الذي أعلن عنه عبد الملك،

[2]- عبد العزيزالفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، تحقيق عبد الكريم كريم ،الرباط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، ص200-201.

اصطدم بهذه الذهنية الوسيطية التي كان ترفض التغيير والتأقلم مع المتغيرات التي كان المجال المتوسطي يشهدها لا سيما في ضفته الشمالية، فهذه الذهنية رفضت مشروعه الحداثي بحجة أنه قادم من دار الكفر.

الحداثة التي أراد عبد الملك أن يؤسسها في المغرب، كانت إلى حد كبير مسايرة للحداثة التي نضجت في أوربا، فمن خلال بعض المصادر التي تحدثت عن عبد الملك أشارت إلى أنه أعجب بالحداثة التي كانت تكبر وتنمو في أوربا من خلال شبكة من العلاقات التي كانت له مع عدة شخصيات أوربية منذ أن كان في الجزائر،

فقد استطاع من خلال هذه الشبكة من العلاقات، أن يطلع على الذهنية الأوربية وطرق تفكيرها. فمثلا كانت له صداقة مع الأخوان " **كورسو**" ، فعائلة كورسو الإسبانية عرفت بالتجارة في مدينة فلنسيا ، وكانت له صداقة " **بأندريا كورسو**" قوية، بعدما أن تعرف عليه في الجزائر بل ونقل قضية عبد الملك السياسية إلى الملك فليب الثاني، وحاول الدفاع عنه في حضرة هذا الملك الإسباني ، إلا أن هذا الأخير لم تكن له رغبة في البداية لدعم عبد الملك ومساندته وحتى استقباله كما توضح الرسالة التي بعث بها فليب الثاني لأندريا كورسو : " **أما ما يتعلق بمجيئ الشريف إلى مدريد، كما جاء في رسالتك، فلا أظن أن زيارته ستكون ملائمة في الوقت الراهن لما قد يترتب عليها من مشاكل. ولأجل هذا، وإن كنت لا أرى مانعا في استقباله، فإني أفضل أن تؤجل هذه الزيارة إلى أن تكون الظروف أكثر ملائمة**"[1].

ارتبط عبد الملك كذلك بشخصيات أوربية وازنة في زمانها، منها على سبيل المثال لا الحصر، الطبيب الفرنسي " **غيوم برار**" الذي عالجه في القسطنطينية، كما تعرف كذلك على" **ديك ودي مرين** " الإسباني الذي كان أسيرا بمراكش إضافة إلى " **فراي جوان باوتيستا** " [2].لم تكن بوادر التحديث عند عبد الملك في أمور السياسة وحسب ، بل تعدت إلى أمور الجيش ، حيث كان يؤمن بأن أسس الدولة الحديثة تكمن في قوامها العسكري، الذي لا يمكن أن يظل صامدا إلا إذا تأسس على مبدأ الثبات والإنضباط ، ومدى قدرة مؤسسة الجيش على استعمال السلاح الناري والتواجد في البحر لا في البر .

استلهم عبد الملك مظاهر التحديث العسكري، من الجيش العثماني، عند مشاركته إلى جانبه في الحملات العسكرية خاصة في البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم آمن كثيرا بأن قوة الجيش تأتي أولا من قوة أسطوله البحري، إذ لا يمكن أن تصان الحدود ويردع الطامعين في غياب أسطول بحري قوي. انطلاقا من قناعته هاته حاول عبد الملك التجديد في العقيدة العسكرية المغربية من خلال الإعتماد أولا على العقيدة العسكرية النظامية، والإهتمام بسلاح المدفعية كما أولى اهتماما خاصا بصناعة السفن كما سنوضح ذلك.

[1]- عبد الجيد القدوري ، المغرب وأوروبا....، مرجع سبق ذكره ، ص 190.
[2]- نفسه ،صص 190- 191.

تشير بعض المصادر التاريخية، إلى أن عبد الملك كان يسهر بنفسه على صهر الحديد، الذي يستعمل في صناعة الأسلحة [3]. وحول أمور البحر كان اهتمامه كبيرا جدا، حيث شرع مباشرة بعد عودته إلى المغرب في صناعة السفن الحربية في كل من سلا والعرائش. لقد رأى المؤرخ المجهول حسب ما أورده الباحث المغربي عبد المجيد القدوري، في محاولات عبد الملك الهادفة إلى بناء الأسطول البحري المغربي إرادة من هذا السلطان في توطيد أوتاد الدولة السعدية، والعمل على جعلها تساير ما كان يدبر ويحاك في البحر والمحيط [1].

شكلت رغبة عبد الملك في بناء القوة العسكرية في مختلف تفرعاتها، وسعيه لامتلاك السلاح الناري وخاصة سلاح المدفعية، مظهرا ناجحا من مظاهر التحديث التي أراد من منطلقها أن يجعل المغرب قادرا على مسايرة ما كان يحصل في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط. وما كان لكل هذه الفرص التحديثية أن تتاح لعبد الملك وهو الفاعل فيها، لولا لم يكن عارفا للذهنية الأوربية ومدركا لها، ففطنته السياسية واحتكاكه بالمجال المتوسطي جعله قادرا على بلورة هذه الفرص التحديثية التي لم تكتمل بالشكل والطريقة التي أرادها لها.

رأى الأوربيون في هذا السلطان منذ البداية رجل سياسة وسلطة، وفطنوا لطموحاته التحديثية، وأدركوا خطرها خاصة وأنه كان يولي اهتماما كبيرا لأمور السلاح والبحر، فهذين المجالين هما من جعل أوربا تتفوق على الآخرين وتفرض عليهم إيقاعها التحديثي والحداثي، وحول هذا الموضوع يحدثنا المؤرخ المجهول مرة أخرى قائلا: " **وكان للنصارى عند وصوله إليهم تدبير عظيم على مولاي عبد الملك. فقد قال بعضهم لبعض إن السلطان رأى مملكة الترك ورأى منافع البحر، فأول ما أمر به إنشاء السفن. وإذا كملت له العمارة يقطع إلى بلادنا مع أهل الأندلس وهم أقرب إلينا من غيرهم في الرأي ولا يشتغلوا إلا بنا لا محالة ونحن ندبر ملكنا قبل أن يصح سلطانه ويتمكن أمره. وأول التدبير عندنا أن تخرجوا وتتمكنوا بالسواحل وتحتوو عليها وتقاتلوه في بلاده وأرضه. فاجتمع رأيهم على ما ذكر**".[2]

نستشف من خلال ماسبق أن السلطان عبد الملك كان رجل تجارب حداثية، استلهم معظمها من أحداث متوسطية، وأراد أن يؤسس من خلالها دولة الحداثة، التي كانت ستشكل استثناء في منطقة شمال إفريقيا آنذاك. فإرادته في الإنفتاح كانت قوية، وعزيمته في تحديث الجيش كانت جادة، والقوانين التي أراد أن يكسر بها المألوف كانت في اعتقاده هي الضامن الوحيد لتنفيذ تلك المشاريع الحداثية، وجعل المغرب قادرا على مسايرة أحداث عصره وخاصة ما كان يحصل في أوربا القريبة منه جغرافيا. فبواسطة حنكته وذكائه السياسين استطاع أن يتعرف على الذهنية الأوربية ويختبر تطلعاتها.

---

[3]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا .....، مرجع سبق ذكره ، ص 193.
[1]- نفسه ، ص 194.
[2]- المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمادارتية، طبعة كولان، 1934 ،ص 194.

كانت لعبد الملك طموحات كبيرة جدا لجعل المغرب يسير في خط متوازي ذي نفس متواصل مع أوربا، لكن مدته القصيرة في الحكم لم تكن تسمح لتحويل تلك الفرص الحداثية إلى مشاريع تتيح بناء الحداثة في مغرب القرن السادس عشر، فوفاته المفاجئة والتي لا زالت غامضة، ضيعت على المغرب تلك الفرص الثمينة في بناء الحداثة. فهل استفاذ أحمد المنصور من تجارب أخية التحديثية بعد وفاته؟ .

المحور الثالث

عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي والإتجاه نحو مسايرة أوروبا:

1- معركة وادي المخازن: التوازن العسكري والإحترام الدولي

كتب الكثير حول هذه المعركة العسكرية، التي نعثت في بعض الكتابات المغربية بنعوث مختلفة، فتارة وصفوها بمعركة "وادي المخازن"، وتارة أخرى أطلقوا عليها إسم معركة " الملوك الثلاثة"، أما الإسم الثالث والذي يبدو غير معروف للبعض يتمثل في معركة " وادي المخازي" بحسب ما أورده ابن أبي محلي في مخطوطه " **الإصليت الخريت** " [1] . ونظرا لرمزيتها الكبيرة فقد تغنى بها بعض المغاربة في شعرهم وقصائدهم، ففي قصيدة شعرية لأبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي نقرأ:

وجردت في ذات لإله صوارمـــــا * تصول بها والعاجزون نيـــام .**
ضربت بها التثليث للحتف ضربة * فلم يبق بعد للصليب قيـــــام .**
وأمطرت وبلا بالمخازن قطـــــرة * بموت الأعادي يندق وسهام**[2]

ليس هدفنا في هذه المراجعة التاريخية، إعادة قراءة حدث المعركة بتفاصيله التي يعرفها الجميع، وخاصة المهتمين بتاريخ المغرب خلال هذه المرحلة، لكن نسعى أن نعيد قراءة حدث المعركة من زاوية كونه مثل في ذلك الوقت حدثا تاريخيا مهما، كان يجب على المغرب آنذاك أن يستثمره للإنطلاق نحو بناء قوة عسكرية تسير في منحى واحد مع ما كان يحصل في أوربا مابين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين.

شكلت بداية القرن السادس عشر في أوربا مرحلة هامة في البناء العسكري، حيث تم الإهتمام بتطوير السلاح الناري، والإهتمام بالملاحة والبحر، وهذا الإهتمام المتزايد أتاح لهم مدخلا مهما لترسيخ بناء الحداثة العسكرية في أوربا، إضافة إلى الحداثة الفكرية والسياسية والدينية التي تجسدت مع الحرة الإنسية مرورا بحركات الإصلاح الديني وصولا إلى فلسفة الأنوار، وبواسطة كل هذه التحولات، أخذت أوربا تفرض إيقاعها الحضاري على المخالفين لها وتنشر إرادتها على الخصوم.

[1]- ابن أبي محلي، الاصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 100،28
[2]- أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية،1983.

اهتمت الإستوغرافية الأوربية كثيرا بحدث معركة وادي المخازن ، حتى أنها أكثرت الحديث عنها أكثر مما خصصته لها الاستوغرافية المغربية أو العربية. ففي البرتغال على سبيل المثال لا الحصر تحولت أسطورة " سيبستيان" على حد تعبير " لوسيت فلنسي" عبر الامبراطورية البرتغالية وجردت هذه الأسطورة من جوهرها التاريخي، لتصبح مجرد إيديولوجية يشترك فيها دون سيباستيان مع ملوك آخرين[3]. الذي يجب أن نستحضره ونحن نعيد قراءة حدث المعركة، ألا ننظر إليه مجرد حدث عسكري عابر كان الحظ فيه للمغرب،

بل كان يجب على أصحاب القرار والسلطة آنذاك، أن يجعلوا منه حدثا تاريخيا يؤسس لمرحلة التوازن العسكري مع أوربا تحديدا، والعالم الخارجي بشكل عام، ومن ثم يغدو حجرا أساسيا في بناء القومية المغربية كما ذهب إلى ذلك محمد حجي حين قال: " **ولعل أروع مظهر للقومية المغربية في القرن العاشر هو معركة وادي المخازن(...) أثار الخطر الداهم حماسا وطنيا (...) إن حادثة وادي المخازن، بكل واقعية وتجرد عمل أمة واعية وجهد قومي صرف** " [4].

وظف أحمد المنصور الذهبي انتصاره في هذه المعركة، لبناء شخصيته التي لطالما أراد أن تكون قوية، لكن لم يوظف من خلالها شخصية المغرب القومية، كما أنه لم يجعل من هذا الإنتصار نقطة تحول إيجابية في تاريخ المغرب من خلال الاستثمار في القاعدة العسكرية التي تعد هي الأساس لضمان استمرار القومية الوطنية للمغرب، وتحصينها مستقبلا من كل ما من شأنه أن ينال منها. كما أنه لم يستغل انتصاره لفرض شروط على الأطراف المنهزمة كما هو معروف في تاريخ المواجهات العسكرية، التي دائما ما يفرض الطرف المنتصر إيقاعه على الطرف المنهزم.

مكنت مراجعتنا لحدث معركة وادي المخازن كذلك من أن المستفيد منه هو أحمد المنصور الذهبي، فمهندس الإنتصار هو أخيه عبد الملك الذي توفي والمعركة لم تبدأ، وهذا ما أشار إليه الباحث المغربي عبد المجيد القدوري في كتابه " **المغرب وأوربا** " [1] . فالتجربة المتوسطية التي راكمها عبد الملك عندما كان في الجزائر، ومشاركته في الكثير من المعارك العسكرية إلى جانب الدولة العثمانية ضد القوى الأوربية، جعلت منه قائدا محنكا، وهكذا استطاع أن يوظف خبرته تلك من خلال تأطيره للجيش، ووضعه للخطط الحربية التي اشتغل بها أثناء معركة وادي المخازن، وهذا ما جعل منه رجلا مندمجا في عصره ومسايرا للتطورات التي كان يشهدها المجال المتوسطي آنذاك ،إلا أن شخصية عبد الملك وتجاربه لم يتم استثمارها في مغرب الدولة السعدية إذ سرعان ما همش دوره حتى في الكتابات التي عاصرته والتي حاولت أن تسرق منجزاته و تلصقها بأخيه أحمد المنصور[2].

كان أحمد المنصور الذهبي هو الآخر مدركا لحجم التحولات التي تشهدها أوربا وفي ميادين مختلفة، لكن ما يعاب عليه أنه لم يفعل ما من شأنه أن يساير تلك التحولات أو ما يتجاوزها،

---

[3] - l.valensi ,fables de la mémoire,la glorieus bataille des trois, rois,seuil,paris,1992 ;p.166.

[4]- محمد حجي، جولات تاريخية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1995،صص 558-559.

[1]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا..... مرجع سبق ذكره، ص 178.

[2]- نفسه، ص 176.

لصيانة القومية المغربية وجعلها في توازن مع القوى المحيطة بها. فمنطق السياسة والحكم، يتطلب صناعة القرار بما يضمن التفوق على الخصم، خاصة إذا امتلكت معلومات عنه، لكن للأسف رغم معرفة وتوفر معطيات عن أوربا، إلا المغرب خلال هذه الفترة لم يضاعف الجهد لمسايرة الركب الأوربي المتنامي والحداثة الآخذة في البناء. كما أن المغرب لم يستثمر بعض القلاقل التي كانت تشهدها أوربا خلال بداية العصر الحديث، ولعل أبرزها ما أشار إليه عبد العزيز الفشتالي الذي يعد من أبرز مؤرخي الدولة السعدية. فهذا الأخير تحدث على أن أوربا كانت غارقة في الصراعات القائمة بين الكاتوليك بزعامة فليب الثاني، والتيار البروتستانتي بزعامة إنجلترا،

وحول فصول هذا الصراع يورد مايلي: " **وملأت عليه البحر أساطيلها (يعني إيليزابيت) وجرت عليه (فليب الثاني) هزائم أتيح لها عليه الظهور وأوغلت في مضايقته...وملكت عليه البحر أجمع. فكادت أساطيلها تقطع عنه منافع الهند ومجابيه وعطلت على بلاده مرافق البحر والتجر وضاق منها مخنقة إلى اليوم.** "[3]

2- تجليات التحديث في مغرب المنصور:

بداية لا يمكن أن ننكر أن نجاح أحمد المنصور في تدبير شؤون الحكم والسلطة اقترن بالسياسة التحديثية التي مهد لها أخوه عبد الملك، فبعد وفاة هذا الأخير سطع إسم أحمد المنصور الذهبي وتحديدا عندما حددت معركة وادي المخازن الطرف المتصر، فرغما أن مهند الأنتصار السلطان عبد الملك، إلا أن من قطف ثمارها فهو أحمد المنصور، كما استفاذ هذا الأخير كذلك من سياسة أخيه الداخلية والخارجية، لذلك أولت الإستوغرافية المغربية قدرا كبيرا من الأهمية له فأطلقت عليه إسم " **الذهبي** " . لكن من يعود إلى الخلف يدرك أن الصورة الذهبية لأحمد المنصور قبل وفاة أخيه كانت باهتة، ولم يكن لها حضور قوي داخليا وخارجيا بنفس القدر الذي كانت عليه صورة عبد الملك.

صحيح أن أحمد المنصور حقق نجاحات كثيرة في إدارة شؤون الدولة، وفرض إرادتها داخليا وخارجا، لكن جزء كبير من تلك النجاحات ارتبطت بإرث أخيه خاصة في السنوات الأولى من حكمه، فالمنصور لم يكن رجلا محنكا كما كان عبد الملك، لذلك وجدناه ينتقده حول أمور تدبيرية عندما كان نائبا له في فاس والتي كان يعتبرها عبد الملك أساس الملك واستمرارية الدولة[1]. فهل كان الإخوة على خلاف في طريقة تدبير شؤون الحكم والسلطة ؟ فرغم الملاحظات التي سبق وأشرنا إليها ، فإنها لا تنفي الدور الذي قام به أحمد المنصور كمحاولة منه لتحديث المغرب وجعله دولة مهابة في الداخل كما في الخارج. فما هي تلك الفرص التديثية التي عرفها المغرب في عهد المنصور؟.

تطلع أحمد المنصور الذهبي إلى بناء مقومات الدولة المغربية وفق ما شاهده عند العثمانيون مبتعدا عن مسار أخيه التحديثي، فهو استفاذ من موقف المجتمع ورد فعله المألوف الذي حاول عبد الملك تكسيره،

[3]- عبد العزيزالفشتالي، مناهل الصفا ....، مصدر سبق ذكره، ص 194.

[1]- أحمد ابن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب، دار الكتب، الدار البيضاء، ج1956،5 ،صص 66- 67.

والذي أحدث اضطرابا داخله. فلتفاذي ذلك اعتمد على التدبير العثماني الذي رأى فيه كونه سيكون مقبولا داخل المجتمع المغربي، مستندا في ذلك على أنه قادم من دار الإسلام، عوض ما ذهب إليه أخوه عبد الملك والذي رأى فيه كثير من الوجهاء والفقهاء أنه قادم من دار الكفر.

بدأ أحمد المنصور تجربته التحديثية بالإهتمام بمؤسسات الدولة، وبتنظيماتها الإدارية والعسكرية التي وافقت كلها التجربة العثمانية. فعلى المستوى الإداري، حاول أحمد المنصورأن يقيم دولة مركزية على غرار ما عاينه عند الأتراك، وفهمه كذلك من المحاولات التحديثية التي كان أخوه عبد الملك ينوي القيام بها والمستوحاة من أوربا. فبمجرد مبايعته أنشأ أحمد المنصور مجلسا استشاريا سمي بـ (الديوان) والذي كان يجتمع كل يوم الأربعاء للنظر في القضايا السياسية والقضائية والعسكرية، كما أحدث تنظيما إداريا مركزيا وإقليميا قويا ومحكما استطاع بفضله أن يحكم الدولة ويدير شؤونها. وفي المجال العسكري، أولى أحمد المنصورعناية خاصة منذ بداية حكمه للجهاز العسكري، فأحدث جيشا نظاميا تكون من فرق عسكرية أخضعها لتدريب قوي، واختار لتلك الغاية عناصر عجمية كما طعم الجيش بعناصر أندلسية وأخرى تركية، فاستطاع بذلك أن يؤسس نواة عسكرية صلبة قادرة على درئ الأخطار وتحصين البلاد داخليا وخارجيا.

تظهر عناصر التحديث في مؤسسة الجيش زمن المنصور كذلك في التجهيزات العسكرية، حيث كان الجيش المغربي في عهده يوافق باقي الجيوش المتوسطية الأخرى. فقد عزز الجيش بسلاح المدفعية مستفيذا من تجربة أخيه عبد الملك، كما آمن كذلك بالسلاح الناري الذي اعتبره ركنا أساسيا في السياسة الحربية، لذلك جهز الجيش بالأسلحة النارية، كما أعطى اهتماما خاصا لصناعة البارود، وفي هذا السياق اشتهرت دار العدة بمراكش بإنتاج البارود[2]. ولضمان التزود بهذه المادة، التي تعتبر أساسية في صناعة المقذوفات (الكور) ،أقام مصانع لإنتاج البارود في كل من فاس وتارودانت ، فأصبح المغرب في عهده قادرا على صهر الحديد وصناعة البارود، وبذلك أسس لمرحلة مهمة لصناعة المدافع والكور، ومن أهم الأسماء المغربية التي ارتبطت بهذه الصناعة الحاج أحمد الغمق[3].

لم تقتصر سياسة التحديث عند أحمد المنصور فقط في المجال الإداري والعسكري، بل أدخل عدة إصلاحات ذات الطابع التحديثي في المجال الإقتصادي، وهكذا تشير العديد من المصادر إلى أنه أقام خططا رامت تحديث الإقتصاد المغربي وجعله قادرا على مسايرة الاقتصاديات المتوسطية، والصمود في وجه الأزمات سواء كانت داخلية أو خارجية. ولتحقيق هذا التحديث الإقتصادي، اهتم المنصور أولا بتأهيل البنية التحتية وجعلها قادرة على مسايرة التحولات الإقتصادية التي كان يشهدها المجال المتوسطي، فشيد الطرق وبنى القناطر لربط كل مناطق المغرب مع بعضها البعض، وخاصة المناطق التي كانت تشكل مراكز تجارية أساسية في المبادلات التجارية، فحول هذه الإنجازات يحدثنا الفشتالي قائلا: " **ومنها بناء القناطر المتعددة كقنطرة تانسيفت،**

[2]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ....، مرجع سبق ذكره، ص 202.
[3]- نفسه ، ص202.

وكذا قنطرة وادي أم الربيع السفلي، وكذا قنطرة بين المدن المحروسة فاس(...) والقنطرة العظيمة التي كانت على واد سبو" [1].

اهتم أحمد المنصور اقتصاديا كذلك بالزراعات التسويقية كقصب السكر والنيلة، واحتكر إنتاجهما وتسويقهما بما يخدم مصلحة الدولة، كما وضف تسويقهما في أمور السياسة. وما يحسب له أنه وسع من المساحة المخصصة لهذا النوع من المزروعات التسويقة،

حيث كانت منطقة سوس المجال الذي اتخذ منه المنصور مكانا لهذه الزراعة حسب ما أورده حسن الوزان : **" وهذه البلاد (سوس) منجة وخصبة تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة ..."**[2]. فبفضل اهتمامه بهذه الزراعة التسويقية دخل المغرب اقتصاديا إلى السوق العالمية، واتخذ منها أداة لحفظ سياسته الخارجية على حد تعبير الباحث المغربي عبد المجيد القدوري[3].

3- فتح السودان والإتجاه نحو العمق الإفريقي

مكن انتصار السعديين في معركة وادي المخازن من تحقيق مكاسب سياسية وعسكرية، سواء على مستوى الداخل أوعلى مستوى الخارج: فداخليا كان للمعركة دور كبير في توطيد دعائم السلطة السعدية، كما حسمت مسألة الصراع على الحكم، وزادت كذلك من هيبة الدولة بين مختلف القبائل وحتى الزوايا المناوئة للسلطة السعدية، الأمر الذي سمح للمخزن بتوسيع نفوذه وبناء قوته بعد المعركة. أما خارجيا فقد استطاعت نتائج المعركة، أن توقف الأطماع المغرضة للدول الأوربية وخاصة الإيبيرية منها. لكن على الرغم من ذلك، لم يستطع السلطان السعدي أن يفرض إيقاعه على تلك الدول التي كانت تتربص بالمغرب قبيل المعركة ، ويتجلى ذلك في كون أن الدولة السعدية رغم انتصارها هذا وجدت نفسها محاصرة اقتصاديا وعسكريا من قبل الامبراطورية العثمانية من ناحية الشرق، والدول الايبيرية المنهزمة ضده من ناحية الشمال، فلا هو استطاع التحرك نحو الشمال حيث بلاد الأندلس ، ولا فرض ذاته نحو الشرق حيث الوجود العثماني بغية انتزاع مكاسب سياسية، تجعل من المغرب دولة محصنة ومهابة وقادرة على المشاركة في أدوارا سياسية واقتصادية وعسكرية في حوض البحر الأبيض المتوسط مستقبلا.

اختار المغرب السعدي في ظل هذه المحاصرة التي كان يشعر بها - رغم انتصاره في المعركة - التوجه نحو الجنوب (بلاد السودان الغربي)، التي تمتد على مساحة واسعة من غربي القارة الافريقية ، بين منطقتين متباينتين طبيعيا وبشريا واقتصاديا، هما : الصحراء الافريقية الشاسعة الأطراف في الشمال، حيث لا تتم الحياة إلا في الواحات وحيث تكثر أنماط حياة الترحال والتنقل، والغابة الاستوائية المكتظة الأشجار موطن القبائل الزنجية البدائية في الجنوب.

---

[1]- الفشتالي، مناها الصفا... ، مصدر سبق ذكره، ص22.
[2]- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط،1980، ج1، ص94-95.
[3]- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا.... ، مرجع سبق ذكره ،ص 206.

وقد اشتهرت منذ القديم بنهرها العظيم (نهر النيجير) الذي يبعث الخصب والحياة في جميع المناطق التي يمر بها [4] . ويزيد صاحب مناهل الصفا واصفا بلاد السودان الغربي بالقول: " **وحسبها ببلاد آثرها الله وأثراها بنهر الجنة ومنبع مياه الرحمة... وأرض كرم الله تربتها وأبان فضلها** " [5] .

كانت بلاد السودان الغربي حسب ما تقدم، أرض محط أطماع نظرا لحجم المؤهلات الطبيعية،

والموارد والخيرات التي كانت تكتنزها، لذلك اندفع إليها أحمد المنصور الذهبي بدافع تحقيق رغبته التوسعية التي مهد لها بضمان بيعة ملك بورنو سنة 1583م. كما ضم تيكورارين وتوات إلى السيادة المغربية [1]. واستطاع كذلك، إخضاع مجموعة من الإمارات السودانية في منطقة حوض السنغال، ولم تقف في وجه طموحه التوسعي، سوى مملكة سنغاي وريثة الإمبراطوريتين العريقتين مالي وغانا. لن نفصل كثيرا في المناطق التي فتحها أحمد المنصور الذهبي في بلاد السودان الغربي، فالموضوع معروف وقيل حوله الكثير، لكن كان لابد من هذه الإشارة الخاطفة لنريد سؤال مهم هو: ألم يشكل السبق السعدي لبلاد السودان الغربي فرصة ذهبية سياسيا واقتصاديا؟.

مكنت الحملة السعدية على بلاد السودان الغربي من توسيع المجال الجغرافي لمملكة أحمد المنصور الذهبي، التي امتدت جنوبا إلى ما وراء نهد النيجر، وشرقا إلى بلاد النوبة الملامسة لصعيد مصر. أما على المستوى الإقتصادي، فقد استفادت التجارة الصحراوية السعدية كثيرا من التواجد في العمق الإفريقي، فالسعديون احتكروا بذلك جزءا مهما من المبادلات التجارية، وتحكموا كذلك في الوساطة التجارية الأوربية مع إفريقيا، فالسلع التي احتكر المغرب السعدي الاتجار فيها لم يتم استغلالها بما يخدم المصلحة السياسية والإقتصادية للمغرب، ويعزز من تموقعه داخل القارة الإفريقية.

فالمتتبع للانتصارات العسكرية الأوربية على مر العصور، يدرك أن انتصاراتها لم تكن فقط لكسر شوكة الخصوم، بل جعلت منها جسرا لتحقيق أهداف توسعية، ومطامح اقتصادية وسياسية. فهذه المكاسب لم نرى المغرب خلال هذه الفترة يحققها رغم الفرص التي أتيحت له، كما أنه لم يستطيع أن يوظف تلك الأنتصارات بما يحقق مصالحه كدولة وليس كأسرة حكمت المغرب في ذلك الوقت. فالأسرة السعدية حتما استفادت كثيرا من تلك الإنتصارات العسكرية، لكن المغرب لم يستفيذ مها ولم يتخذ منها أسس قوة، لفرض إيقاعه على باقي الدول الأخرى ولسيما الدول الأوربية المجاورة له والتي لطالما كانت لها أطماع استعمارية ضدله. فسقوط المغرب في الضعف الاقتصادي والسياسية والعسكري، والتي وجد نفسه يعاني منه خلال القرنين الثامن عشر،

4- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط ،2006،ص 145.
5- الفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا.....، مصدر سبق ذكره، ص.117
1- محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، 1888،ص 87.

وسقوطه في فخ الإمبريالية الأوربية بداية القرن العشرين، يؤكد بالملموس عدم استفاذته من كل تلك الفرص التي أتيحت له خلال العهد السعدي.

خاتمة:

نستنتج من خلال ما سبق، أن الأميرين عبد الملك وأحمد المنصور كانا على وعي تام بأهمية المرحلة التي حكما فيها المغرب داخليا وخارجيا، فعلى المستوى الداخلي، كرسا حياتهما في كل ما من شأنه أن يساهم في توحيد المغرب، وضبط قبائله وتقوية جهاز المخزن وفرض هيبة الدولة.

أما على المستوى الخارجي، فقد كانا على علم تام بطبيعة التحولات التي تشهدها الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط. وقد سعيا من وراء وعيهما هذا، أن جعلا المغرب قادرا على مسايرة أحداث وتحولات عصره، لاسيما خلال فترة حكمهما، كما يرجع الفضل لهما في صنع أحداث استطاع بفضلها المغرب كذلك من تقوية مركزية الدولة، ومجابهة أوربا والدولة العثمانية في كل أطماعهما داخل المغرب.

استطاع الأميرين عبد الملك وأحمد المنصور بفضل سياستهما أن يؤسسا لعدة فرص تحديثية كانت ستجعل من المغرب بلدا حداثيا ونموذجا فريدا يحتدى به في الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط، لكن كل تلك الفرص التحديثية التي قام بها كل منهما لم يتم استثمارها، كما لم يحسن استغلالها بشكل يجعل بناء الحداثة في مغرب الدولة السعدية، وما بعدها أمرا ميسرا، ولعل إجهاض تلك الفرص التحديثية، راجع في اعتقادنا إلى عدة علل نفصلها في النقط الآتية:

- الوفاة المبكرة لعبد الملك.
- اختلاف طرق التحديث في تجربة عبد الملك وأخوه أحمد المنصور، فالأول كان متأثرا بالتجربة الأوربية، أما الثاني فحاول أن يجدد وفق التجربة العثمانية وهذا التضارب هو الذي أجهض المشروع الأول ومن ثم غابت الإستمرارية في البناء الحداثي.
- تأسيس الجيش وفق عقيدة الولاء للسلطان لا الولاء للدولة كمؤسسة، الأمر الذي لم يساهم في استمرار الدولة كمؤسسة بعد وفاة السلطان.
- غياب استراتيجية الإستمرارية في البناء والإستفاذة من التجارب السابقة مع وفاة كل سلطان أو تغير الأسرة الحاكمة، إذ كل سلطان كان يحاول طمس إنجازات سابقيه والإنطلاق من نقطة الصفر لتهيئ سياسة حكمه.

المصادر والمراجع المعتمدة في المقال:

❖ مصادر ومراجع باللغة العربية

1. ابن أبي محلي أحمد بنعبد الله، تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة، مخطوط، الخزانة الحسنية، رقم 2634.
2. ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الحمدي أبو النو، تونس، المكتبة العتيقة، القاهرة، دار الثرات، الجزء 3، 1971.
3. ابن أبي محلي، الاصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 100
4. إيرل كينز، المسيحية عبر العصور، ترجمة عاطف سامي، دار نوبار للطباعة، قبرص،1992.
5. أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية،1983.
6. الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، ج1980،1.
7. أحمد ابن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب، دار الكتب، الدار البيضاء، ج5 ، 1956.
8. المؤرج المجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمادارتية، طبعة كولان، 1934 .
9. عبد العزيزالفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.
10. عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا مابين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي،2000.
11. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط ،2006.
12. محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، 1888.
13. محمد حجي، جولات تاريخية، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1995.

❖ مصادر ومراجع باللغة الفرنسية

1. J.Carpentier et F.Le Brun(sous dir),Histoire de l'europe, éd du Seuil, Paris,1990.
2. Martin Luther, Oeuvre,T1 , Labor et Fides, Genéve,1957.
3. l.valensi ,fables de la mémoire,la glorieus bataille des trois, rois,seuil,paris,1992 .
4. De torres diego,**Relacion origen y succeso de los mercedes garcia** Arenal. Siglo vienteuno de espana. Ed .S.A . 1980

5. F. BERNAND ,la Méditerranée et le monde méditerranée à
6. l’epoque de philippe 2t. armand. Colin paris, 1966.